

اسلوب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان

علي رضا ميرزا محمد

مؤسسة الدراسات والبحوث الثقافية

إن تفسير الميزان موسوعة رصينة جامعة، تشتمل على أبحاث عميقة في القرآن والحديث والفلسفة والعرفان والاخلاق والتاريخ والمجتمع وغيرها، دونت بشكل ابتكاري واسلوب تحقيقي دراسي. وهذا التفسير القيم بديع ورائع في الشكل والمعنى، ورعاية الموازين القرآنية الصحيحة، وفصل الأبحاث التفسيرية والروائية والعلمية بعضها عن بعض، ونقد آراء بعض المفسرين ودراساتها وتحليلها، وماشابه ذلك، إلى حد يمكن القول فيه: إنه لم يؤلف خلال تاريخ تفسير القرآن كتاب بهذه الدقة والتنسيق والاشتمال. فهذا الكتاب يختلف عن التفاسير الأخرى اختلافاً كبيراً وواضحاً في طريقة تفسيره وصيغته العلمية؛ ذلك أن التفاسير القديمة والحديثة تفتقد إلى التنسيق والتنظيم الخاصين اللذين روعيا فيه، هذا وعلى كل حال يمكن بيان خصائص تفسير الميزان ودراساتها في النواحي الثلاثة الأساسية التالية:

الف: الناحية القرآنية. تقوم هذه الناحية التي تعتبر في الواقع الميزة الأساسية للميزان، ويميزه عن بقية التفاسير على أساس تفسير القرآن بالقرآن، أي تفسير كل آية بالاستشهاد بآيات أخرى.

ب: الناحية الروائية. لقد تمت دراسة المسائل في إطار الأبحاث الروائية للميزان في أبعادها المختلفة وبمنظرة تحليلية؛ وأدّى الموضوع حقّه كاملاً بدون أي إيجاز مخلّ وأطناب مملّ. وكانت النتيجة حلّ الكثير من المشاكل والغموض وإزالة التباسها.

ج: الناحية العلمية المستقلة. كان العلامة الطباطبائي بعد أن يفسر آية أو عدداً من الآيات ذات الموضوع الواحد، يورد بناء على مقتضى الكلام وحسب الضرورة أبحاثاً علمية مستقلة في الميزان، ويبادر إلى شرح وبيان جوانب كل بحث في نهاية الدقة والإيجاز ويخرج بنتيجة معقولة ومنطقية تحلّ الكثير من المشاكل العلمية والثقافية.

للدخول الى معرفة «الميزان»

والتاريخ والمجتمع وغيرها، دونت بشكل ابتكاري واسلوب تحقيقي دراسي. وهذا التفسير القيم بديع ورائع في الشكل والمعنى، ورعاية الموازين القرآنية الصحيحة، وفصل الأبحاث التفسيرية والروائية والعلمية بعضها عن بعض، ونقد آراء بعض المفسرين ودراساتها وتحليلها، وماشابه ذلك، إلى حد يمكن القول فيه: إنه لم يؤلف خلال تاريخ تفسير القرآن كتاب بهذه الدقة والتنسيق والاشتمال. وهو يتبين تماماً عن التفاسير الأخرى - القديمة منها والحديثة - تلك التفاسير التي كان يهتم

يعتبر تفسير الميزان الشريف أثريراع العالم الرباني القدير، والحكيم الصمداني، والجامع للعلوم الفلسفية والشرعية، والعارف الواصل والانسان الكامل، والمفسر الكبير العلامة الطباطبائي - رضوان الله تعالى عليه - أحد المصادر الأساسية في الثقافة والعلوم الإسلامية في القرن الراهن. كما أن هذا الكتاب العظيم في الحقيقة موسوعة رصينة جامعة، تشتمل على أبحاث عميقة في القرآن والحديث والفلسفة والعرفان والأخلاق

مؤلفوها غالباً إما باتجاه واحد أو اتجاهات محدودة. فيضَيِّعون بالتالي الكثير من الحقائق. أو أنهم لا يراعون في دراستهم و أبحاثهم دقة النظر الكافية، و والاهتمام العلمي الضروري. أو أنهم يؤلفون كتاباً هو أقرب إلى الترجمة منه إلى التفسير. أو قد يميل بعضهم - عمداً أو سهواً - من التفسير إلى التأويل و يحملون آراء هم العلمية على مضامين الآيات. ولا ريب في أن هذه الطريقة الأخيرة قد شاعت بعد اتساع رقعة الفتوحات الاسلامية اعتماداً على الأبحاث الكلامية والفلسفية والعرفانية والروائية وغيرها في مجال تفسير القرآن، و انتهت إلى اختلافات مذهبية شديدة و بالتالي أدت إلى الاختلاف في طرق التفسير. و هو ما أشار إليه الشيخ الطوسي - قدس سره - في مقدمة تفسير التبيان:

«فوجدت من شرع في تفسير القرآن من علماء الأمة، بين مطيل في جميع معانيه، واستيعاب ما قبل فيه من فنونه - كالطبري وغيره - و بين مقصر اقتصر على ذكر غريبه، و معاني ألفاظه. و سلك الباقون المتوسطون في ذلك مسلك ما قويت فيه مَنَّتْهم^(*) و تركوا ما لا معرفة لهم به فإن الزجَّاج والفراء و من اشبههما من النحوين، أفرغوا و سعمهم فيما يتعلق بالاعراب والتصريف. و مفضل بن سلمة و غيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الالفاظ. و المتكلمين - كأبي علي الجبائي وغيره - صرفوا همَّهم إلى ما يتعلق بالمعاني الكلامية. و منهم من أضاف إلى ذلك، الكلام في فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به، من بسط فروع الفقه، و اختلاف الفقهاء - كالبلخي وغيره»^(١).

و ذهب العلامة الطباطبائي إلى أبعد من ذلك، فبعد دراسة جميع أساليب التفسير و نقدها، استنتج قائلاً:

«و أنت بالتأمل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد: أن الجميع مشتركة في نقص و بئس النقص، و هو تحميل ما انتجه الأبحاث العلمية أو الفلسفية من خارج على مداليل الآيات، فتبدل به التفسير تطبيقاً و سُمي به التطبيق تفسيراً، و صارت بذلك حقائق من القرآن مجازات، و تنزيل عدّة من الآيات تأويلات»^(٢).

إن و قوف الأستاذ العلامة الكامل على نقائص أسلوب المفسرين قبله، و اهتمامه برعاية الدقائق الضرورية في تفسير كتاب الله بشكل صحيح، و تطلعه إلى هدف سام، هو الذي أبدع مثل هذا الأثر الطريف و التفسير الشريف. هذا التفسير الذي

يمكن البحث عن أسباب تباينه عن التفاسير الأخرى في مبدعه فقط، و بعبارة أوضح، إن سبب هذا التباين يكمن في النبوغ الفكري و القدرة العلمية والعملية والشخصية الفذ يتمتع بها ذلك الأستاذ. ذلك أنه لم يكن ذاباع طويل في الفلسفية والشرعية فقط بل كان أيضاً من أصحاب المع والسهود والكمال بين أصحاب الكرامات في وادي المع بعبارة أخرى: كان تبحر هذا العلامة في الفلسفة والتفسير والأصول والحديث والآداب والرياضيات والنجوم و النادرة وغيرها من جهة، و طيه المراتب العرفانية العالية الكمالات المعنوية و تحلقه بالأخلاق الإلهية من جهة أ. دليلاً على إحاطة هذا الآية الإلهية العظمى في العلم والعلم كما قال أحد الذين جنوا من رياض علمه و فضله:

«كان آية الله العلامة الطباطبائي يجمع بين العلم و علاوة على استيعابه للعلوم؛ ذلك العمل الذي ينبع من النفس و يتحقق هذا على أساس طهارة الباطن؛ كان جام العلوم والكمالات الفكرية والوجدانيات والأذواق القلبية الكمالات العملية و البدنية. أي إنه كان رجل حقّ تتحقّق ذرّات وجوده بالحق»^(٣).

و من الطبيعي أن تكون إحدى ثمرات وجود عالم كبير ما قاله أحد مرّديه فيه مكرماً و معظماً:

«إن كلّ آثار ذلك العالم الجليل علم و فكر؛ كلّها حة معرفة؛ كلّها بحث و تحقيق؛ كلّها عشق و عقل؛ كلّها و حديث»^(٤).

و على كلّ حال فإن تبلور العلم والعمل، والفكر والإخ والعقل والإشراق في وجود هذا الرجل العظيم الحكيم، كَو شخصيّة فذة نادرة، فارتضاها تماماً أهل الفضل والبه كميزان للعلم والكمال. و من البديهي ألا نتوقع من قطرات مثل هذا الحكيم الزاهد أثراً غير تفسير الميزان القيم في العلوم الاسلامية و قد حصر هذا العالم نشاطه سعياً منه هذا الهدف الالهي السامي، في مجالي التفسير والفلسفة. تبحره في الفقه والأصول والحديث والعلوم الاسلامية الأ. أداء منه لتكليف شرعي. يقول الأستاذ نفسه في هذا الـ «حينما قدمت من تبريز إلى قم، قمت بدراسة ما يحتاج المجتمع الاسلامي، والوضع الذي في حوزة قم، و و

لبحث الدقيق إلى أن الحوزة بحاجة شديدة إلى تفسير إن، لتطلع على المعاني السامية في أكثر النصوص الإسلامية له وأعظم أمانة الهية والتعريف بها. كما كانت الحاجة ماسة جهة أخرى إلى البحوث العقلية والفلسفية بسبب انتشار كوك الإلحادية لتستطيع الحوزة إرساء القواعد الفكرية مقائدية الإسلامية بالبراهين العقلية والدفاع عن آرائها. و لك رأيت من واجبي الشرعي أن أسعى لتوفير هاتين الجتين»^(٥)

لقد كان تدريس التفسير والفلسفة بذلك الدافع الإلهي نسبة للعلامة ذا أهمية إلى الحد الذي دعا لإحلالها محل درسي فقه والاصول. يقول في بيان سبب هذا العمل: «يوجد في حوزة قم العلمية والحمد لله أشخاص يدرسون فقه والأصول، ولكن لا يوجد ما يكفي من الأساتذة للفلسفة لتفسير، وحوزة قم العلمية والمجتمع الإسلامي بحاجة شديدة إلى التفسير والفلسفة، ولذلك فإن ممارستي لهذين العلمين أنفع للإسلام»^(٦)

لقد بدأ العلامة الطباطبائي تدريسه لتفسير القرآن في الحوزة عدوه هذه النظرة الإلهية والأفكار السامية، وتابع تدريسه سنين طوياً إلى أن تم التمهيد لتأليف تفسير الميزان بعد دراسات و نقضيات طويلة، هذا التفسير الذي استمد مادته من اندماج العلم بالعمل، والعشق بالعقل، والالتزام بالاخلاص. حتى أصبح من الواجب أن يدعى بحق «أم الكتاب» بين مصنفات و مؤلفات ذلك العلامة الحكيم.

ميّزات تفسير الميزان

إن الميّزات والخصائص التي يتمتع بها تفسير الميزان الشريف أوسع من أن تدرس دراسة وافية في مثل هذه المقالة. ولكن اعتماداً على قول «مالا يدرك كله لا يترك كله» لابد من دراسة بعض الجوانب فيه. فهذا الكتاب يختلف عن التفاسير الأخرى اختلافاً كبيراً وواضحاً في طريقة تفسيره وصيغته العلمية. ذلك أن التفاسير القديمة والحديثة تفتقد إلى التنسيق والتنظيم الخاصين اللذين روعيا فيه. وعلى كل حال يمكن بيان خصائص تفسير الميزان ودراستها في النواحي الثلاثة الأساسية التالية: الف: الناحية القرآنية. تقوم هذه الناحية التي تعتبر في

الواقع الميّزة الأساسية للميزان. ويميزه عن بقية التفاسير على أساس تفسير القرآن بالقرآن، أي تفسير كل آية بالاستشهاد بآيات أخرى وبعميلة التدقيق والتمحيص يبادر لتبيان مدلول جانب من القرآن بتناوله جانب آخر منه. وهو أسلوب بديع مستمد مماورد بصراحة في القرآن الكريم:

«... ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء...»^(٧)

«... هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان...»^(٨)

«... وأنزلنا إليك نوراً مبيناً...»^(٩)

كما أن هذا الأسلوب يستلهم في تفسير الآيات الإلهية من أخبار و أحاديث أهل بيت الرسالة والولاية. حيث نجد عند الرجوع إلى أبحاث الميزان الروائية نماذج كثيرة لها، علاوة على أن في نصوص الحديث شواهد تؤيد الأسلوب المذكور، فقد روي عن المعصومين (ع) حول ذلك:

الرسول الأكرم (ص): «... إن القرآن ليصدق بعضه بعضاً...»^(١٠)

الامام علي (ع): «كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض»^(١١) ففي الناحية القرآنية للميزان لم يتطرق البحث إلا لتفسير القرآن بالقرآن، وتبعاً لما يراه العلامة، فقد تم تجنب أي نوع من الاستدلال الفلسفي، والنظريات العلمية والمكاشفات العرفانية في تفسير الآيات. أمّا بعض الابحاث الفرعية الأولية التي وردت بالضرورة في هذا القسم لا تخرج عن أمرين: إما أنها ملاحظات أدبية تعتبر من الضروريات الأولية لفهم الأسلوب العربي للقرآن، أو مقدمات بديهية عقلية ومبادئ علمية لا يختلف فيها اثنان.^(١٢) وكما يبدو، ليس هذا الأمر مما لا يتنافى مع أسلوب التفسير الذي نبحت فقط بل يعتبر من الضروريات الأولية في التفسير باعتبارها مقدمة لدرك مفاد القرآن.

و يعتمد البحث في المقدمات المذكورة هذه في السياق العام لدراسة الناحية القرآنية للميزان على أسلوب خاص، وذلك أن تذكر آية أو عدة آيات ذات موضوع واحد ثم يتم الحديث عن ذلك الموضوع تحت عنوان «بيان الآية أو الآيات» بشكل مجمل بحيث يستنبط من مجموعها في الواقع «المعجم الموضوعي للقرآن» ثم تذكر كل آية تبعاً لتسلسلها القرآني، وتتم دراسة المسائل اللغوية والبلاغية - الأدبية المتعلقة بألفاظ الآيات وفق

الضرورة، بحيث تدور غالباً حول المعاني، واشتقاق المفردات، و
اعراب الكلمات، والمجازات والكنايات والاستعارات وأنواع
التشبيه والتمثيل وغيرها. وليس لهذه المسائل أهمية كبرى
باعتبارها ضرورية كمقدمة للتفسير فقط بل ذات أهمية أيضاً
بالنظر للبلاغة وصور القرآن البيانية.

ويبدأ بعد هذه المقدمات البحث الأساسي وهو تفسير
القرآن بالقرآن وإزالة الغموض الذي في كل آية بالاعتدال على
آيات البينات الأخرى. ويتابع المؤلف التفسير بأسلوب دقيق
بالاستناد إلى كتاب الله وأخبار المعصومين - عليهم السلام - في
نهج منطقي دون أن يحدث أي تدخل أو تصرف في مدلول الآيات
أو التفسير بناء على ما جاء في الحديث النبوي «من فسر القرآن
برأيه وأصاب الحق فقد أخطأ».^(١٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن طريقة تفسير القرآن بالقرآن وإن
كانت متبعة إلى حد ما قبل الميزان وانتشرت بعده، إلا أن الميزان
يظل التفسير الممتاز الوحيد الذي لا مثيل له ولا منازع. وليس
للتفسير السابقة واللاحقة أن تبلغ شأوه وتطرق ساحة عظمته.
ولا يعود سبب هذا التفضيل وهذه الميزة إلى تفسير آية بالنظر إلى
مضامين عدد من الآيات المشابهة أو استنباط حكم من الأحكام
الفقهية والأصولية وغيرها بإعادة الآيات العامة إلى الخاصة أو
المطلقة إلى المقيدة. وإنما مزية الميزان في أن فيه التفسير الظاهري
والباطني من جهة والتأويل من جهة أخرى - ذلك التأويل الذي
هو من أصل الحقائق الخارجية للمفاهيم والمعاني. بحث روعي
التشابه بين الظواهر القرآنية، والتنسيق بين بواطن الآيات
والتبائن في التأويل مع انسجام تام بينها. ومن الطبيعي أن يكون
مثل هذا التفسير والتأويل من إبداع فكر خلاق لمفسر كالعلامة
الطباطبائي الذي استطاع بما وفق إليه من تهذيب في النفس،
وانسراح في الصدر ورسوخ في العلم أن يتدبر في القرآن بقلب
وقهاج، وأن يكشف عن مفاتيح الآيات ليفتح بها أبواب خزائن
التأويل، ويصل إلى المعاني العميقة في القرآن، وينير الدرب أمام
المتطلعين للوصول إلى العلوم القرآنية الأصيلة. وبناء على هذا
فلا بد من أن يعتبر الميزان بمثل هذه الخصائص البارزة تفسيراً
ممتازاً لا نظير له في تاريخ تفسير القرآن. أو كما قال العلامة
المطهري في ذلك:

«لم يدون تفسير الميزان كله بالفكر، واعتقداً أكثر

«إن هذا التفسير فريدمن نوعه في عرضه للمسائل الدقيقة
والحساسة والحيلولة دون مغالطة المعاندين، ومن حيث انه
شامل وجامع حتى يمكن القول بحق: لم يدون تفسير مثله
من صدر الاسلام».^(١٤)

ولابد من الإشارة إلى أنه وردت أحيانا في خلال التفسير
أبحاث قرآنية بشكل جامع أو على انفراد تعتبر بحد ذاتها أهمية
من الناحية الموضوعية. كما ذكرت أحيانا مختلف الآراء
التفسيرية في المواضع التي لم يتفق المفسرون في وجهات النظر
حول تفسير آية من الآيات وتم نقدها وشرحها ودراستها بدقة.
وكان أسلوب العلامة في هذه المرحلة أن يذكر في البداية آراء
أشهر المفسرين كالزنجشيري والفخر الرازي والآلوسي و
صاحب المنار ثم ينقدها ويشرحها بأسلوب استدلاي يركز على
مدلول الآيات. وينهي البحث ببدء رأيه الصائب الذي يكشف
عن الحقيقة ويزيل الغموض.

ب. الناحية الروائية. إن الأسلوب الصحيح الذي نهجه
العلامة الطباطبائي في التفسير الروائي يختص به وحده لما فيه
من دقة وشمول علمي، وهو يختلف عن أسلوب المفسرين
الآخرين الذين غالباً ما يقتصرون في التفاسير المأثورة و
غير المأثورة بنقل روايات عن الرسول الاكرم والائمة
المعصومين - صلوات الله عليهم أجمعين - فيختارون المصادر
الروائية و ينقلون الروايات منها تبعاً لاتجاهاتهم الفكرية -
المذهبية و تعصبهم لفرقهم. وبالتالي يوردون في تفاسيرهم
الكثير من الأحاديث و الروايات الضعيفة و غير الموثوقة
ولا المستندة بدون أي بحث تحليلي. أما الأحاديث والروايات
المتعلقة بالآيات في تفسير الميزان الشريف فقد نقلت من الجوامع
الحديثية والكتب المعتمدة لدى علماء الفريقين، و تم في بعض
الحالات نقد الروايات التي لا تتفق ونصوص القرآن، ودراستها
دراسة دقيقة و مستدلة و جامعة. و بذلك تتميز الأحاديث
الصحيحة والحسنة من الضعيفة و يرد الكثير من الاسرائيليات

نسيحيات والمجوسيات التي لا يمكن أن يطلق عليها سوى سم أكاذيب أخذت طريقها إلى الأحاديث الصحيحة و تلقى ناباً و ذلك بالاعتماد على الأدلة والبراهين. و علاوة على ذلك قد عينت مواضع الجري والتطبيق والتأويل بدقة في خلال لأبحاث الروائية، كما شرحت بعض الروايات ووضع لها بعض لتعليقات الضرورية والمفيدة، بحيث يساعد كل ذلك على بيان لدول الآيات مساعدة كبيرة.

والجدير بالذكر أن العلامة يملك قدرة كبيرة على تأويل لأحاديث واعادتها إلى الآيات في القرآن بما يحيط به من ألفت هنية، بالاضافة إلى وقوفه على تأويل الآيات والتنسيق بين ظواهر القرآن و بواطنه. وهو ما أشار إليه آية الله الكيلاني من خلال شرحه لأسلوب التفسير في الميزان قائلاً:

«لقدمنحه الله خصيصة عظيمة في تأويل الأحاديث. هذه الخصيصة التي هي إحدى معجزات النبي يوسف الصديق. و يعني تأويل الحديث إعادة الرواية والحديث إلى أصلها. و كان تأويل الحديث في وجود العلامة الطباطبائي. أي كان يعيد الروايات التي وردت عن آل بيت رسول الله (ص) إلى القرآن، وهذا منتهى الكمال العجيب»^(١٧).

نعم لقد كان في روايات أهل بيت الرسالة حقائق ورموز خفية لا يصل إليها سوى الفكر الصافي والعقل النير، و كان لا بد من علامة كالتباطبائي يستطيع بما يملك من سمو فكري حنيف و عقل كامل نادر أن يكشف الستار عن رموز تلك الروايات وأسرارها، و يبين بالتالي الحقائق القرآنية.

كما شرح علاوة على ذلك المواضيع والمسائل الولائية عن طريق البحث في الأخبار والروايات التي يؤيدها علماء السنة و وردت في أحاديثهم. و بين بأسلوب استدلال الولاية الكلية والعامّة لمولى الموحدين الامام علي بن أبي طالب و سائر المعصومين - عليهم السلام - كما جرى بحث علمي دقيق حول سبب نزول الآيات ووردت نظريات مدروسة، فصلت بين الجري والتطبيق و بين أسباب النزول مع تنقيح و تصحيح الروايات المتعلقة بهذه الأسباب. و هو أسلوب لم يسبق إليه خلال تاريخ تفسير القرآن؛ ولانبالغ إذا ادعينا انه يمكن أن يشاهد في الميزان اكثر الأبحاث أصولية في شأن نزول آيات كتاب الله وأدقها تنقيحاً وتحقيقاً.

لقد تمت الاستفادة في الناحية الروائية للميزان من مصادر عديدة أهمها بناء على كثرة الرجوع إليها:

الف. الدر المنثور في التفسير بالمأثور و صحيح البخاري و صحيح مسلم و شعب الايمان والسنن للبيهقي عند السنة. ب. الكافي و تفسير علي بن ابراهيم القمي و تفسير العياشي و تفسير البرهان و تهذيب الأحكام و مجمع البيان و معاني الأخبار و عيون أخبار الرضا عند الشيعة.

و بصورة عامة فقد تمت دراسة المسائل في اطار الأبحاث الروائية للميزان كالناحية القرآنية أيضاً في أبعادها المختلفة و بنظرة تحليلية. وأدّى الموضوع حقه كاملاً بدون أي إيجاز مخل و اطناب ممل. و كانت النتيجة حل الكثير من المشاكل والغموض وازالتها؛ وبالتالي تعاظم قدر و منزلة هذا التفسير الشريف بين كبار أهل العلم والفضل.

ج. الناحية العلمية المستقلة. كان العلامة الطباطبائي بعد أن يفسر آية أو عدداً من الآيات ذات الموضوع الواحد، يورد بناء على مقتضى الكلام و حسب الضرورة إبحاثاً علمية مستقلة في الميزان، و يبادر إلى شرح و بيان جوانب كل بحث في نهاية الدقة والايجاز و يخرج بنتيجة معقولة و منطقية تحل الكثير من المشاكل العلمية والثقافية. و هو يورد هذه الأبحاث بشكل منفرد و تحت عناوين خاصة، علمية و فلسفية و عقلية و تاريخية و اجتماعية و اخلاقية و غيرها لكيلا تتداخل المقولات التفسيرية بالمسائل العلمية ولا تفرض النظريات العلمية على دلائل الآيات، ولا يميل التفسير إلى التطبيق بصورة عفوية، ولا يفسر بالرأي، و بصورة عامة لا تتعرض الحقائق القرآنية للتحريف. و هذا الأسلوب المستحسن الذي اتبع في الناحيتين القرآنية والروائية بدقة أيضاً، ينم عن تقوى هذا المفسر الالهي الكبير و كماله النفسي و صفاته الروحي. و بناء على هذا لا بد من أن نأخذ بنظر الاعتبار أنه لم يكن هدف العلامة من ايراد مثل هذه الأبحاث تفسير الآيات و شرحها على أساس القواعد العلمية. أو عبارة أخرى لم يكن يريد أن يفرض نتائج البحوث العلمية - باعتبارها حقيقة مسلماً بها - على مضمون الآيات و إنما كان علاوة على تفسير الآيات البيانات بالأسلوب القرآني يبين مختلف المسائل العلمية والعقلية و الفلسفية و غيرها باعتبارها تأييداً للوحي والحقائق القرآنية أو لأن هذه العلوم ذات قدر و منزلة و اعتبار خاص. و

دراستها وشرحها ولا يسمح بحال من الأحوال بالاستفادة من المسائل الثقيلة (العلوم الشرعية). كما يبادر في أبحاث الميزان الاجتماعية، التي تعتبر فريدة من نوعها كماً وكيفاً، إلى إيراد نظرات القرآن الكريم حول أصول علم الاجتماع ويعمد إلى دراسة وشرح الآداب الاجتماعية والعلاقات الانسانية و مشاكل المجتمع من مختلف الجوانب.

والخلاصة أن الاستاذ العلامة الطباطبائي يبادر في جميع نواح الميزان العلمية: القرآنية منها والفلسفية والكلامية والاخلاقية والعرفانية والتاريخية والسياسية والاجتماعية وغيرها إلى دراسة كليات المسائل وجزئياتها بتفكير عميق ونظرة دقيقة، ولا يرفع يده عنها ريثما يصل إلى النتيجة المطلوبة والمنطقية التي تتفق مع الموازين العلمية الصحيحة، ولا يتخطى أية مسألة بسهولة أبداً. وعلى كل حال فقد دون الميزان يمثل هذا الاسلوب الذي ينم عن دقة نظر علمية لدى المؤلف الكبير وعن تعهده الالهي الخاص وليس له من هدف سوى شرح العلوم والمعارف الالهية والعالم في رحاب الوجود وهداية الانسان بنور وحي القرآن الكريم وتعاليمه الضامنة لسعادة البشر.

المصادر والهوامش:

- * المثلثة: القوة، والكلمة من الاضداد.
- ١ - الميزان في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي، ج ١، ص ٨.
- ٢ - الميزان في تفسير القرآن - العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ج ١، ص ٨.
- ٣ - مهردادان (فارسي) - سيد محمد حسين حسيني طهراني، ص ١٣.
- ٤ - يادنامه مفسر نير (فارسي)، مقالة: الاستاذ حسن زاده الأملي، ص ١١٣.
- ٥ - نفس المصدر، مقالة: الاستاذ محمد تقى مصباح، ص ٣٩ - ٤٠ - وجاء نفس المضمون ولكن مع مزبد من السرح والتفصيل في «نخستين يادنامه علامه طباطبائي» (فارسي)، ص ١٩٤ - ١٩٧.
- ٦ - نفس المصدر، مقالة: الاستاذ ابراهيم الاميني، ص ١٢٤ - ١٢٧.
- ٧ - سورة النحل (١٦)، الآية ٨٩.
- ٨ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٨٥.
- ٩ - سورة النساء (٤)، الآية ١٧٤.
- ١٠ - كنز العمال في سنن الاقوال والافعال - المنقي هندي، ج ١، ص ٦١٩، الحديث رقم ٢٨٤١.
- ١١ - سراج نهج البلاغة - ابن أبي الحديد، ج ٨، ص ٢٨٧، ونهج البلاغة - تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص ١٩٢.
- ١٢ - مرجى الرجوع الى: الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ١٢.
- ١٣ - تبيين في تفسير القرآن - الشيخ الطوسي، ج ١، ص ٤، ورد هذا الحديث بروايات مختلفة أيضاً.
- «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» (الرسول لاكمه (ص): كنز العمال -

هذا نفس أسلوب الأستاذ الفيلسفي الذي جمع فيه بين المعارف في القرآن الكريم وبين البرهان والعرفان. والذي يمكن أن نطلق عليه اسم «الحكمة السامية» ويعتبر بحد ذاته أحد الخصائص المثيرة في الميزان.

وعلاوة على ذلك فإن لناحية الميزان العلمية خصائص بارزة أخرى أيضاً، أهمها: الفصل بين حدود المسائل العلمية وظائفها. فحدود كل بحث في هذا التفسير معينة وميزة تماماً تبعاً لمدى موضوعيته العلمية كما دار الحديث في كل نوع من العلوم عن الأحكام والمواضع الخاصة، بهذا العلم فقط بشكل لا يمكن أن يشاهد فيه أثر للتداخل بين المسائل والمزج بين الأبحاث، فليس في مجال الأبحاث الكلامية مثلاً أثر لعلم الأخلاق، وليس للتاريخ دور في البحوث الاجتماعية، ولا في الحديث عن العرفان، مكان للفلسفة، فقد روعيت حدود كل بحث بدقة تبعاً لقول القائل «لكل مقام مقال»^(١٨) دون تداخل بين الأبحاث والموضوعات المختلفة، كما استغني في بعض المواضع عن إيراد بحوث خارجة عن حيز التفسير واكتفي بالإشارة إلى موضوع مثل هذه الأبحاث فقط. كما حدث أحياناً أن أحيل البحث في المسائل الفقهية والأصولية إلى المصادر الخاصة بهذين العلمين.^(١٩)

ومن الخصائص الأخرى لهذا التفسير، دراسة الآراء والأفكار في المدارس المختلفة ومطابقتها للقانون الاسلامي المقدس. وقد روعيت هذه الخصيصية في جميع نواح الميزان العلمية، ولا سيما في الناحيتين الفلسفية والاجتماعية حيث تبدو واضحة ولها أهمية بالغة. أما أسلوب العلامة في هذا المجال فيعتمد على إيراد مختلف النظريات التي تتعلق بموضوع خاص ثم العمل على شرحها ونقدها بنظرة صائبة وتحقيقية وبيان مواضع النفي والاثبات أو الرد والتصويب فيها، ثم يجيب اجابة دقيقة و منطقية عن مشاكل المدارس الاحادية والمادية التي أخذت طريقها إلى المجتمعات الاسلامية، ويزل الغموض بأسلوب استدلال عقلية ويكشف عن الحقائق.

فالعلامة جعل البرهان والعرفان في الأبحاث الفلسفية عامة في خدمة القرآن، وتصدى في هذا السبيل للدفاع عن حريم الاسلام المقدس والقرآن، بشرح الكثير من حقائق الوجود، فكان يورد الاصول الفلسفية بأسلوب رياضي ويعمد إلى

اسلوب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان

- المتقي الهندي، ج ٢، ص ١٦، رقم ٢١٥٧ - و بكلمة «تكلم» بدلا من «قال»: بحار الانوار - العلامة المجلسي، ج ٩٢، ص ١١١ نقلا عن «ميزان الحكمة - محمدي ري سنهري، ج ٨، ص ٩٥».
- «من فسر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر فإن أخطأ كان اثمه عليه» [الامام الصادق (ع): الحكم الزاهرة - علي رضا الصابري البزدي، ص ١٢٧] - وباللفظ «وإن» بدلا من «فإن»: ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٩٥.
- وفي حديث: «ومن فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب» [الرسول الاكرم (ص): مستدرک سفينة البحار - الشيخ علي نغازي الساهرودي، ج ٨، ص ١٩٦].
- قال الله جل جلاله: «ما آمن بي من فسر برأيه كلامي...» [الرسول الاكرم (ص): نفس المصدر: وكلمة الله - السيد حسن السيرازي، ص ٨٧، و ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٩٥].
- «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» [الرسول الاكرم (ص): كنز العمال، ج ٢، ص ١٦، رقم ٢٩٥٨] - و بإضافة كلمة «برأيه» بعد «القرآن»: الحكم الزاهرة، ص ١٢٧.
- «من قال في القرآن بغير ما علم جاء يوم القيامة ملجأ بلجاء من نار» [الرسول الاكرم (ص): ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٩٥، والحكم الزاهرة، ص ١٢٧].
- إن هذه الروايات تؤكد بصورة عامة على نيل التفسير بالرأي وهي ترقب عواقب وخيمة وعقاباً أليماً لأئمة هؤلاء المفسرين بحيث تعتبر صاحب الرأي الصحيح غير مأجور في ذلك، والأهم من هذا أن من فسر برأيه وأصاب فقد أخطأ، وكل هذا التأكيد لكيلا يحل التأويل محل التفسير ولأن فرض نتائج الأبحاث العلمية على مضمون الآيات، ولا يستبدل الجري والتطبيق بالتفسير ولكيلا تتعرض بالحقائق والمعاني القرآنية، السامية بالتالي إلى التحريف.
- ١٤ - نخستين يادنامه علامه طباطبائي (فارسي)، ص ٢٠٠.
- ١٥ - يادنامه مفسر كبير (فارسي)، ص ٣٢.
- ١٦ - مهر تابان، (فارسي)، ص ٤٣.
- ١٧ - روزنامه كيهان (جريدة فارسية)، بتاريخ ١٣٦٠/٩/٥.
- ١٨ - غررالحكم و دررالکلم - عبدالواحد بن محمد التميمي الآمدي، شرح محقق الخوانساري ج ٥، ص ١٦.
- ١٩ - يرجى الرجوع إلى: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٢١.